

حوار الحضارات وصعوباته

obeikandi.com

حوار الحضارات وصعوباته (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن العصر الذي نعيش فيه هو العصر الذي تفرض فيه الحضارة الغربية سيطرتها، وهي الحضارة التي انطلقت بالتكر للدين أو على الأقل بإبعاده إلى أشد الزوايا عتمة في ذهن الإنسان، وفي المقابل اعتمدت العقل الصناعي واعتبرته السبيل الوحيد للإنسان ليتمكن بواسطته من اكتشاف العالم وفتح قنوات الاتصال بين أرجائه، لكن سرعان ما تعرضت هذه الرؤية وهذه الحضارة إلى أزمة شديدة لم تعرف أسبابها إلا بعد مضي قرون عديدة.

كان القرن التاسع عشر قرن الأزمات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة في الغرب، وهي الأزمات التي امتدت إلى النصف الأول من القرن العشرين، وتمثلت بحربين عالميتين مدمرتين. ولكن مع بداية القرن الخامس عشر للهجرة وإطلالة الألف الثالث للميلاد، اكتشفت البشرية أن أزمة الحضارة المعاصرة هي «أزمة المعنويات»، أي أن سبب

(*) نص الخطاب الذي ألقاه السيد محمد خاتمي في افتتاح «المؤتمر الدولي لإحياء الفكر الديني للإمام الخميني» ونشرته جريدة الحياة اللندنية في ١١ من يوليو (تموز) عام ١٩٩٧.

الأزمة هو الفراغ المعنوي؛ وفي الوقت الحاضر انعدمت الثقة كلياً بفاعلية العقل البشري والتجربة والعلم والنمو والتطور، لذا فنحن نشهد تشكيكاً على نطاق واسع في العالم بالاعتماد على الفاعلية المطلقة لتلك العوامل، ولم يكن ذلك مقتصرًا على العالم الإسلامي، فقد بدأ هذا التشكيك الملحوظ في أوساط المفكرين وأصحاب النظريات في العالم الغربي واستشعارهم بأن ثمة نواقص في حياة البشر لا يستطيع العلم المحض والتجربة والعقل أن تملأها. ويتعبير آخر فإن ذهنية إنسان اليوم وضميره، على مشارف الألف الثالث للميلاد، يتجهان نحو اكتشاف البعد المعنوي للعالم وللسلوك الفردي والاجتماعي للإنسان.

هذه الخطوة العملية تفرّعت إلى طريقتين: الأولى افتقدت في الواقع إلى الجذور وتعرض لنوع من الانحراف، وهو ما نشهده في الدول الصناعية، حيث هناك ميول إلى نوع من التبجيلية وقراءة الطالع وممارسات عرفانية غير دينية، والاعتقاد بالمسائل الغيبية وحتى بعض المسائل الخرافية، وهي تنتشر على نطاق واسع يوماً بعد آخر في هذه الدول، مما يؤكد في حد ذاته أن إنسان اليوم يبحث من وراء بريق التطورات المادية عن حقائق أخرى.

أما الطريق الآخر لهذه الخطوة العملية، فهو أنها اتسمت بالوضوح والفهم الكامل للدين والمسائل المعنوية، وهذا الطريق يتفرع إلى اتجاهين في التطبيق: الأول - خارج نطاق الطقوس - وفيه اتجه الفلاسفة والمفكرون في شكل خاص نحو المعنويات والدين كعامل قادر على ملء الفراغات الموجودة في حياة الإنسان وذهنيته. أما

الاتجاه الثاني، فهو ينطلق من العمق الديني، ويتمثل بالتزام الطقوس العبادية والأخلاقية والدينية على نطاق أوسع من الاتجاه الأول.

ولعل في التزام أتباع الديانات المختلفة بقيمهم الدينية، وظهور الحركات السياسية والدينية والاجتماعية في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، دلالة واضحة على ميل الإنسان نحو الدين. وبعد تجارب النظريات الأكاديمية مثل الاشتراكية والماركسية والقومية، فإن الإنسان أظهر رغبة جامحة في التوجه نحو الدين والمعنويات.

هذه العودة لا تعبر بالضرورة عن عودة إلى الماضي، فثمة معطيات أفرزتها تجارب البشر لا يمكن للإنسان تجاهلها. والإنسان، بما يحظى من حق في الحرية والاختيار والتعبير، وفي أن تبقى كرامته مصنونة في الوسط الاجتماعي، وكذلك من حق تقرير المصير، لكل ذلك نراه يتمسك بالمفاهيم المعنوية والدينية، وبعبارة أخرى بالارتباط بين أرض الواقع وسماء الغيب.

وفي اعتقادي أن مستقبل البشرية المتديّنة متعلق بقدرتها على إيجاد حلقة الوصل بين التدين والحال المعنوية مع الاعتراف الرسمي بحق الإنسان في تقرير مصيره بنفسه.

لقد انتصرت الثورة الإسلامية في إيران في أجواء وظروف كهذه، علماً بأنها كانت ذات تأثير كبير في توسيع هذه الأجواء وتعميقها في أنحاء مختلفة من العالم، وذلك على صعيدين:

(١) كانت الثورة الإسلامية سبباً مباشراً في ظهور أنشطة من الداخل وحركات إسلامية في مختلف بلدان العالم الإسلامي، كما

أعطت زخماً جديداً للحركات التي كانت قائمة قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وللتحرك بشكل أوسع على الساحة، وانسحب ذلك على الحركات السياسية غير الإسلامية لاسيما في البلدان المسيحية المتأخرة.

ومن دون شك، فإننا إذا ألقينا نظرة منصفة على الواقع، نجد أن الثورة الإسلامية كان لها التأثير البالغ في تشكيل هذه الحركات وتكريس وجودها، وذلك من دون أن تكون ثمة مساع للناشطين الإسلاميين في فرض حركات كهذه من الخارج على البلدان الإسلامية.

وهنا يظهر مفهوم «تصدير الثورة» بشكل واضح، فقد أعادت قيم الثورة الإسلامية وتجاربها في إيران إلى المسلمين وغير المسلمين الثقة بالنفس ليكونوا قادرين على اقتحام الساحة والمطالبة بحقوقهم.

(٢) كانت الثورة الإسلامية عاملاً مؤثراً في انطلاقة جديدة في العالم المسيحي، تمكّنها من فرض نفسها على الساحة السياسية والاجتماعية في العالم، وبدلاً من الاهتمام بالإنسان المسيحي كفرد والتركيز عليه، بدأ التوجه نحو المجتمع المسيحي ككل، والمستقبل السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمسيحي العالم.

وفي الوقت الحالي نحن نعيش في دولة إيران التي بلغ عمر نظامها الديني وتجربتها الحديثة مع المشاركة الجماهيرية ودورها المصيري ثمانية عشر عاماً. وفي جميع الميادين، وأبرزها الدورة السابعة للانتخابات الرئاسية، نشهد المشاركة الجماهيرية المتسمة بالحوية، وحجم الود

والحب الذي تكنه هذه الجماهير لنظامها وثورتها وقيادتها، وقد مهدت هذه الثورة للانطلاق في عملية إعمار وإعادة بناء عظيمة، وفي تشكيل مجتمع فخور بمشاركة جماهيرية.

وأودّ الإشارة إلى مسألة أخرى، هي أن ثورتنا كانت «ثورة الكلمة». فقد كانت الكلمة والنداء والحديث أدوات هذه الثورة وليس السلاح والقوة، وما أيقظ هذا الشعب وجاء به إلى الساحة هو كلمات الإمام الخميني. وهذه الكلمات هي التي دعت الشعب الإيراني إلى ساحة المصير وأمرت عن انتصار الثورة، لذا فإن ثورتنا لم تعتمد يوماً على السلاح والقوة والانقلابات.

والثورة القادرة على التغيير بالكلمة والحديث، بالقطع واليقين، ستعتمد ذلك خلال مرحلة الإعمار وتعزيز قوة النظام. ونحن نفخر بأن أهم أدوات ثورتنا كان الكلمة والحديث، مثلما كان «البلاغ» أعظم رسالة للنبي الأكرم عليه السلام، بل إن «البلاغ» كان الرسالة الوحيدة للنبي عليه السلام بنص الآية الكريمة: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (المائدة: ٩٩).

هنا لدينا كلمة نوجهها إلى العالم: إن الثورة الإسلامية في الوقت الذي سعت، ولا تزال، إلى تركيز الأسس المعنوية والأخلاقية في المجتمع، باعتبارها الهوية الرئيسية ومحط التلاقي العام في المجتمع، فإنها تولي اهتماماً كبيراً للتنمية في مختلف المجالات بتوظيف كل المنجزات التي توصل إليها الإنسان، وبعون الله تعالى ستواصل طريقها في هذا الميدان بمشاركة الجماهير وبخطى ثابتة.

وعلى الصعيد الخارجي والإنساني، فإن ثورتنا قادرة بل جديرة بزيادة مسيرة الحوار مع أتباع المذاهب المختلفة، وهو الحوار الذي سيدور في البيت الإسلامي، إلى جانب الحوار مع الأديان المختلفة، وكذلك مع الثقافات والحضارات الدينية وغير الدينية.

ونحن نستبدل بالفكرة الخطيرة والخطاثة القائلة بالمواجهة بين الحضارات، الدعوة إلى الحوار بين الثقافات والحضارات، لكن ثمة معوقين يحولان دون تحقيق هذا الحوار: الأول تاريخي والآخر عصري.

إن بيننا وبين العالم المسيحي ذهنية تاريخية مروعة، لا سيما في أعقاب الحروب الصليبية. وقد تشكلت حالة من عدم الثقة والتشكيك بين المسيحيين والمسلمين تحولت مع مرور الزمن إلى مجموعة ترسبات سادت الأذهان في العالمين الإسلامي والمسيحي، علما بأن هذه الحالة تكمن في الدرجة الأولى في العالم المسيحي. والسبب هو أن المسلمين في كل الأحوال يؤمنون بعصمة نبيي الله موسى وعيسى (عليهما السلام) الأمر الذي يهد سبل الحوار مع المسيحيين واليهود وحتى بقية أتباع الأديان الأخرى، في حين أن المسيحيين، وبسبب المغايرة للإسلام، فإنهم قد يحملون نظرة سلبية على نطاق أوسع إزاء الدين الإسلامي والمسلمين، وهذه الذهنية السوداء والظلامية تعد عائقاً مهماً، وتجعل من الحوار عملية صعبة وعسيرة. وبالتأكيد، سيكون التغلب على هذا العائق عملاً عسيراً كذلك.

وهناك مشكلة ذهنية أخرى بين المسلمين أنفسهم، إذ تجلت

الخلافات الكلامية بين الطوائف والمذاهب الإسلامية على مر التاريخ على شكل صراعات دامية ماثرة للأحقاد السياسية، وبالتالي ازدياد الأحقاد والتشكيك العاطفي إلى درجة أنها حالت دون التعامل المنطقي مع القضايا المستعصية.

أما المعوق العصري، فيتمثل في «الاستعمار». فبعد استقرار الحضارة الغربية كان ظهورها على العالم، وللأسف، على شكل «الاستعمار»، إذ إن أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية تجاوزوا حدودهم الوطنية بقصد السيطرة على العالم، ولتحقيق هذا الهدف أباحوا لأنفسهم استخدام كل الوسائل والأدوات، ومنها إثارة مساوئ التاريخ في الأذهان، ليس فقط للإبقاء على الخلافات بين المسيحيين والمسلمين وكذلك بين المذاهب الإسلامية نفسها، بل أيضاً لإثارة هذه الخلافات من زوايا عديدة وعلى نطاق واسع، ليتمكن المستعمرون، في ظل هذه الخلافات والنزاعات، من الوصول إلى مصالحهم غير المشروعة.

وفي الوقت الراهن، على مفكري العالم الإسلامي والعالم المسيحي الذين يطالبون بالحوار فيما بينهم، أن يسلطوا الضوء أكثر على المعوقين التاريخي والعصري، وأن يحذروا بشكل خاص من تحول الدين والمسائل العقائدية والفكرية إلى أدوات بيد السياسة وأصحاب المصالح السياسية والاقتصادية، كما أن على المفكرين الحريصين، انتزاع زمام المبادرة في استثثار المحافل الدولية، من يد السياسة المهتمين بالمصالح الشخصية وأحياناً غير المشروعة، وإن كان هذا العمل عسيراً إلا أنه قابل للتحقق.

وبالطبع ، فإن التغلب على هذين المعوقين يجب أن يتم من خلال محورية مشتركة للمفكرين المسيحيين والمسلمين لغرض التعاوف والمعرفة المتبادلة في مختلف المجالات للوصول إلى الهدف المشترك الذي يحتاج إليه العالم الإسلامي والعالم المعاصر بصورة ملحة ، ويتمثل في ملء الفراغ المعنوي الذي يعتبر السبب الأساسي للأزمة الموجودة في العالم خلال القرن الأخيرة ، وبطبيعة الحال فإن الأداة الرئيسية للتعامل في هذا الحوار ليست شيئاً آخر غير «المنطق» .

واليوم ، باستطاعة المفكرين في العالمين الإسلامي والمسيحي ، بل جميع مفكري العالم ، فتح جسور الحوار فيما بينهم بعد إزاحة الحجب وحواجز التعصب عن الأذهان ، وباعتماد الفكر والمنطق لتحقيق عالم يعمه السلم ، تحترم فيه حقوق الإنسان ، وكذلك قيمه المعنوية ، وبالحيلولة دون إهدار حقوق الإنسان تحت أقدام أصحاب المصالح والقدرات الاقتصادية والسياسية .

وهناك إمكانية كبيرة في العالم الإسلامي لفتح جسور الحوار بين جميع الإخوة والأخوات ، وعلى نطاق أوسع ، بالاستناد إلى الهوية الإسلامية المشتركة التي تكرست ببركة الثورة الإسلامية ، وتحولت إلى ركيزة أساسية لنظام حاكم . والعالم الإسلامي بحاجة ، أكثر من أي وقت آخر ، إلى تقوية هذه الهوية الإسلامية المشتركة وتكريسها ، لتحقيق حياة حرة كريمة ومستقلة لجميع المسلمين .

إن الثورة الإسلامية في إيران ، واستناداً إلى قيمها وتصوّراتها ، على استعداد كامل لفتح باب الحوار وفي مختلف المجالات مع المفكرين

والمحققين المنصفين في العالم الإسلامي والحضارة الغربية والعالم المسيحي،
ومع جميع الأديان، للتوصل إلى سلام دائم في مقابل العالم الذي تحكمه
القوة والاعتقال والمجازر والخديعة. ونحن نؤمن بأن التوصل إلى السلام
العالمي الدائم، الذي محتاج إليه البشرية يكون ممكناً من خلال الحوار
والمناقشات وتحكيم «المنطق» في العلاقات بين بني الإنسان ونبد التعصب
والتزمت.